الانظمة العربية بين معركة المصير وسلوكية الجواري

روى المسعودي في مروج الذهب :
عرضت على عبدالملك بن مروان فتاة في غاية الحسن فنظر اليها باعجاب ثم استدرك : انت والله منية النفس . ولكن يمنعني منك بيت قاله الاخطل :

قوم اذا حاربوا شدوا مآزرهم
دون النساء ولو باتت باطهار

وموضع الاستشهاد بهذا البيت ان الخليفة الشاب كان يخوض حربا ضارية لانقاذ عرشه من تمرد واسع في العراق تزعمه عبدالرحمن بن الاشعث . ولذلك قال عبدالملك بعد ان اورد البيت موجها خطابه للفتاة : أأنعم بالعيش وابن الاشعث مصاف لابي محمد – يقصد الحجاج والي العراق – وقد هلكت زعماء العرب ؟..

والبيت هو من قصيدة للاخطل التغلبي يمدح فيها بني امية . ويستفاد منه أن هذا النوع من الرجال اذا واجهوا مشكلة تعتبر مصيرية بالنسبة اليهم ، امتنعوا عن النساء . ويمكن ان يكون الامتناع عن النساء رمزا لامتناع اوسع يشمل سائر التصرفات الشخصية للقائد . وهنا تتحدث بعض المؤلفات السياسية العربية القديمة عن سلوك الساسانيين فتقول – والقول لمؤلف كتاب التاج المنسوب للجاحظ – ان ملوك بني ساسان كانوا اذا دخلوا في حرب اقتصروا من طعامهم على لون واحد . حتى اذا انتهت الحرب لصالحهم عادوا الى طعام الملوك .

هذان نموذجان لسلوك الرجال حين يواجهون معركة مصيرية بغض النظر عن القضية التي ترتبط هذه المعركة بالتعبير عنها . وقد استفكرتهما وانا افكر في تناول سلوك ((رجال)) الانظمة العربية التي تدعي – رجعيها وتقدميها – انها تخوض معركة مصيرية ضد العدوان الصهيوني على الامة العربية .

وربما بدا الوضع غريبا للنظرة الاولى .. فما يمكن رؤيته على صعيد الانظمة يستعصي على القياس . ومن غير ان اتهم بريئا او احكم على غائب ، فان ما يحدث هنا يحمل من الدليل على التحلل واللامسؤولية بالقدر الذي يكفي لالغاء اي موقف جدي من ذلك الشكل الذي تطرحه الشعارات الاعلامية المكثفة .

ان السلطة في الوطن العربي كانت منذ نشأت هذه الكيانات ولا تزال الى اليوم ، هي الطريق الاكثر ضمانا للحصول على موقع اجتماعي واقتصادي متفوق . وقد جعل ذلك من ممارسة السياسة مهنة مفضلة لمجموعات متزايدة من الناس . وكان يطلق على هؤلاء تعبير السياسي المحترف ، وهو يشمل أولئك الذين تربوا في احضان الاحتلالين العثماني والاوروبي وتبوأوا الحكم في ظل الاحتلال وفي ظل الاشكال المعهودة من الحكومات ((الوطنية)) . ثم نشأت اجيال من الساسة تربت في بعض اشكال الممارسات النضالية ضد الاحتلال والحكومات العميلة ، وساعدت الاوضاع الناشبة بعد نكبة ١٩٤٨ هذه الاجيال الجديدة على الوصول الى الحكم عن طريق الانقلابات العسكرية التي تمخضت عن اقامة الطراز من الحكم الذي يطلق عليه اسم الانظمة التقدمية . وقد اتاحت السلطة فرصا غير محدودة لاثراء الطبقات الحاكمة وحواشيها .

ومنذ عام ١٩٥٢ ، حيث وقع اول انقلاب عسكري في غضون المرحلة الحالية ، والسلطة توفر المزيد من اثراء الحكم في عموم المنطقة التي شملتها الانقلابات .

ونظرة الى طريقة الحياة لرجال السياسة الرسمية في الوطن العربي ربما كم يكلف المسؤول العربي الواحد (من وزير فنازلا او صاعدا) الامة العربية من نفقات لقاء قيامه باعماله الرسمية .. ونحت شعار التقدم ، تتفاقم العناية بالدواوين الحكومية الى حدود مبالغ فيها : من حيث المباذخة في البناء والزخرفة والاناقة .

ويشغل الاثاث الرسمي وضعا من الصعب وجود ما يضاهيه في اي دولة نامية . وتكاد المكاتب الحكومية تتحول تحت تاثير هذا الوضع الى قاعات للعرش تذكر المشاهد بما سمعه او قراه عن عروش الاباطرة . وعلى الرغم من الشعارات التي ترددها اجهزة اعلام الانظمة عن تشجيع الصناعات الوطنية فمن النادر ان تعتمد الاجهزة الرسمية التابعة لهذه الانظمة على المنتجات المحلية لهذا الغرض . ان الاعتماد على الاستيراد من الخارج هو الوسيلة المفضلة عند المسؤولين العرب لاشباع الحاجات المتعلقة باقامة الدواوين او تاثيث القصور او توفير الغذاء الرسمي ، او لاغراض التجميل والتعطير والتلميع .

ولا يصعب على الملاحظ الذكي وهو يتابع صور الزعماء العرب ان يرى كيف تتحول بهم الاحوال فتتورد خدودهم وتملىء اجسادهم بما يعيد الى الذاكرة قول مالك بن دينار : اذا رأيت الامير سمن بعد الهزال فاعلم انه قد خان رعيته ! ناهيك عما يناله متعلقوهم والمحسوبون عليهم من ذوي القربى واصدقاء العمر . وفي الوقت الذي نرى فيه حكاما كماوتسي تونغ وفيدل كاسترو ، لا يزالون ، وقد حققوا المعجزات ، يرتدون نفس الملابس التي كانت عليهم وهم في سوح القتال ، فان البدلة التي يلبسها المسؤول العربي (الذي يظفر الى السلطة في ليلة واحدة) تكلف في المعدل سبعين باونا . ويحرص السياسي العربي من اي مستوى ، على اعتصار السلطة ليستخلص منها في اقصر مدة المكاسب التالية :

- قصر فخم يكلف في المعدل مئة الف دولار
- سيارة فارهة تجدد سنويا
- رصيد في احد المصارف الاجنبية
- وجه اعلامي ترصد تحركاته وتسجل مآثره اليومية
- جولات مجانية في انحاء العالم
- ألقاب .

وينفرد المسؤولون العرب ونساؤهم وجواريهم بالمبالغة في الترف . وقد اخبرني صديق كان في احدى العواصم الغربية ان زوجة احد السفراء العرب اذا دعيت الى حفلة تستقل في اليوم السابق لموعد الحفلة طيارة تنقلها الى باريس لتصفيف شعرها وتعود في الموعد المحدد لحضور الحفلة بتسريحتها الجديدة . وتمثل هذه الزوجة دولة عربية صغيرة الحجم وفقيرة الموارد لاعتمادها على اقتصاد زراعي متخلف . مع العلم ان المسافة بين العاصمة المذكورة وباريس تزيد على ثلاثة الاف ميل .

اقتصاد الحرب واقتصاد الخدمات

وتتحدث الانظمة العربية عن اقتصاد الحرب كتدبير لمواجهة متطلبات المعركة . ويمكن ان نرى بسهولة رغم ذلك ان المجتمع العربي يعتمد في القطاع المتمدن منه على اقتصاد خدمات بشكل محور النشاط في قطاعية العام والخاص . وهو لا يفتقر فقط الى اي عنصر من عناصر اقتصاد الحرب بل ايضا الى اي موقع فعال لاقتصاد صناعي او زراعي متطور ، او في طريق التطور. ويرتبط اقتصاد الخدمات بمسالة تعزيز النزعة النفعية الاستهلاكية في المجتمع ، الذي يتحول في ظل هذا النوع من الاقتصاد الى وسط مستهلك وطفيلي ، وسط خامل وغير منتج تنعدم فيه روح المبادرة ويشيع التنافس على الملذات بين سائر طبقاته التي تتجمع حول خط مشترك من المآذل تذهب منها الطبقة العليا بحصة الاسد ساحبة خلفها شراذم من الباقين عن الفئات في مزابل المترفين .

وقد ساهمت اجهزة الاعلام والفن والثقافة في خلق الاجواء التي تمكن للتحليل واللامبالاة من الهيمنة على الوعي العام، فباستثناء التهريج للسلطة ، لا يمكن للمراقب ان يقع على اي اتجاه جدي في هذه الاجهزة . وتتميز السينما والتلفزيون والاذاعة العربية بنزعة ترفيهية طاغية : هنا حيث تذاع وتعرض يوميا اكبر كمية ، تشهدها اية منطقة في العالم، من الغناء الرخيص والرقص الجنسي وافلام الحب والدعارة . وتعيش هذه المذاعات مع الفرد العربي كل جزئيات حياته اليومية الى الحد الذي يبعث على التساؤل عن مدى جدية الاعلانات الحربية الموجهة باستمرار عبر مكرفونات الخطباء في المحافل الرسمية ؟!

ان سلوكية الجواري ، التي تؤلف جوهر السلوك اليومي للمسؤولين العرب تتعارض بشكل جدي وحاسم مع الوضع الاعتيادي لرجال يواجهون معركة فعلية .

ان روح النضال لاتستوطن مستنقع السفاهة! ولقد غدا واضحا للعيون التي لم تفقد صفاء نظرتها بعد ان السلطة في الوطن العربي لا تتجاوز هذا الوصف .. وانا اذ اسجل هذه الكلمات – دونما التفات الى ما قد يقال عن شتمجها – فلست اطمح الى احداث تبديل في مسار حكومات عاشت مع الجواري منذ العهود العباسية ... ما يعنيني ويدفعني الى هذا الموقف خوفي من العدوى . من ان تصبح هذه التسلطات المشينة مطمحا وقدوة للكيانات البديلة التي تكمن الان في رحمة حركة التحرر العربية . خوف لا اشك ، ولا اظن احدا يشك في شرعيته ..

هادي العلوي